قصة قصيرة

اللوحة

منار فتح الباب

كنت في طفولتي أصمم تصميماً عنيداً أحمق على أن أظل أحملق في صفوف الكادحين وهم واقفون في بؤس طابوراً على إحدى الجمعيات[1]. ويبدو أنني وقفت كثيراً مع أمي، فقد تجمّد العرق على وجهي فصرت أشبهها في وجنتيها المنكسرتين في اسمرار وهدوء..

في «الكوربة»[2].. برز طابور البشر خارجاً من الجمعية الكبيرة.. كان يسير ويترنح.. ثم يدخل في شرنقته.. ويعاود الخروج والسير.. تحفّه مناديل الخادمات البيضاء.. أرجلهن الخشبية ـ الملساء.. أغطية رؤوسهن الملونة كذيول الديوك ـ وملامحهن الباهتة.. كانت الحدود استدارات من أسفل خصورهن كجدران القلاع القديمة.. وقطع الرقعة الخشبية الطفولية غير المكتملة.

سقطت واحدة.. انهارت الأخريات.. ظل الطابور قضيباً حديدياً يرفع أجسادهن كمقطعات الأخشاب المنسحقة تحت عجلات القطار.. صارت الأعناق شفاها ممطوطة.. والوجنات كرات حمراء تُنزع في كواليس المخازن الخلفية الخشبية.. اختفت الشوارب.. تعالت الرؤوس.. برزت الوجوه خلف كل رأس تشيح عن جدران المبنى القميء المهيب وهي تتآكل؛ وتضيق كقمع المعدة.

انتفضة لوحة أحشاء الطابور في هيئة أياد معروقة متهدلة.. وقفتُ بحجم الأيادي، وفي الساعات اليدوية التي ترتفع بالصياح من حين لآخر، صممتُ أن أظل أركز في وجوههم.. أتوه.. أحملق.. أختار واحداً.. أياً كان لونه.. سنه.. مظهره.. كي أحفر ملامحه في ذاكرتي حتى أكبر.. كان يسعدني كثيراً أنه لا يعلم أني قد اخترته، فإذا نظر إليّ.. اهتززت سعادة بشرائط ضفيرتي الحمراء لأني قد انتقيته، فأطلق جناحيه ليهرب مني، لكني سجنته بنظراتي.. هو يحسب أني ارتجف تعباً من وقوف الطابور.. مثله.. فيبتسم ثم أقبض عليه مرة أخرى وهو في غفلة واقعاً تحت أسر ابتسامته وعينيه المستديرتين دون حواجب وبلاهة الانتظار.. سوف أتذكره في أي مكان أصادفه فيه... سأتعرف على تعاريج كفه البيضاء المستديرة.. وأصابعه الرفيعة كالخطوط، وساعته المتوقفة وجسده المنبعج من كثرة الانتظار.. نعم.. في أي مكان.. فكثيراً ما نتنقل أنا وأمي بين الجمعيات.. وقد يتذكرني إذا ظلّت تلك الأقواس في الطرقات أقواساً متعبة.. وتلالاً مطوية وحفراً صغيرة نتوه فيها محاولين اختراقها.. لكننا كنا نمر دائماً من تحتها.. فيهتز الريش الصناعي لفساتين الفراء خلف الواجهات الزجاجية..

هبطت.. لم أفك رابطة عنقي.. اخترت وجهاً بائساً.. أشيب الشعر.. يحمل ظل أسرة تسكن هذه الشوارع ذات الأسفلت اللامع.. أم عجوز وثلاثة أولاد وفتاة.. بل ثلاث فتيات وطفل شقي أشقر الشعر ضعيف الساقين يختطف كفّ والده عند عودته كل يوم.

التفت إليّ.. كان مدير الجمعية قد بدأ يسلم أكياس الدجاج المثلجة الصغيرة.. وجدتني أختفي خلف أحد الأعمدة.. صاح الطابور.. هدأ ثم صدأ.. التحمت أجساد البشر.. تهاوت قشوراً وغباراً.. انتشر زغب أبيض.

حين خرجت كان فم الرجل قد اصفرّ لونه.. تجمّد.. برز للأمام في اعوجاج سفلي.. وتحول هو إلى لوح رقيق.. ركضتُ ألهث وراء أمي.. انفضّ الزحام ككل يوم.. بدت المنازل المجاورة أقفاصا قصيرة ضيقة.. وعليّ أن ألحق بها قبل أن أختفي عن بصرها في الشقوق المتسربة من خلال شبكة المشتريات التي ناءت تحت يديها بثقلها وهي تحملها المسافات الطويلة..

مرت الحافلة.. بدت كالرفّ.. لم نصل إليها.. كانت الوحيدة.. لم ألتفت.

كان شعار مدرستي للراهبات يتلألأ بينما تلاحقنا ضحكات الخادمات الماجنة وهن يحكين كيف أغرين الموظفين قبل أن يتزاحمن ويضربن الأخريات.

«سيدتي أجمل من سيدتك.. أكرم منها.. ترسل لأهلي في القرية كل شهر.. أليست إذن أولى منها؟»

مرت فجأة سيارة مدرستي كالعلبة.. مسرعة تكاد تلقي بالصغيرات.. كانت قد عجّت بالصياح والضحكات والضفائر الصفراء.. لمحت الرؤوس وقد ضاقت كثيراً من الأعلى واتسعت عند الفكوك واتخذت لونا برتقالياً.. زدت من خطواتي وأنا أشيح بعيني عن اللافتة البيضاء لاسم المدرسة بالانجليزية خشية أن تراني.. كانت تخيفني.. بؤرة غائرة في لون السيارة المخضوضر كالطحالب الشرسة..

نسيني الوجه المختار.. لم يتكرر مرة أخرى.. التأم في خطوط العرق الذي سال من يد أمي.. حزنت.. عاودت اللعبة والطيران..

تعدد وجهي في لوحة جنازة الزعيم.. في السادسة والنصف من عمري.. بضفائر سداسية التشكيل وبطن صغيرة تبرز نحو الأمام في دهشة.. والساعة تدق معلنة اقتراب العشية.. البيانو صامت في منزل الآنسة ماري.. منزلق الأقدام.. صارم القشرة.. بدا أكثر سواداً.. بيانو الأجنبيات دائماً أنيق هادىء قصير الأصابع خجول.. ماري معلمة أمي ونجلاء قبل أن يجهض حلم أمي في أن تستكمل دراستها بالكونسرفاتوار... يا له من اسم طويل... أجنبي معقد.. نجلاء كانت أول المهاجرين منا نحو مصر الجديدة بعيداً.. في غروب الشمس كانت تسير.. قيل لي نحو مدرستها (سانت ماري) في شبرا.. ربما لحقت بنا إلى منزل الآنسة ماري الرقيقة الطويلة..

خيل لي أن ثمة زوجاً عجوزاً أو أُمًّا في المنزل.. لكن كنا نحن.. أشباحنا.. وماري العجوز.. لا أحد.. البيانو.. والباب الزجاجي الكثيب الذي يلوح الناس من خلاله كالأطياف ليتدافعوا عنوة إلى الشقة.. أشحت بوجهي عن أنف ماري المستطيل كقبعة غابت في الضباب.. كان سر الفاجعة.. وحضورنا المفاجىء لا أدري كيف.. خيّم صمت.. ترحيب مريب.. توجهنا للشرفة مباشرة.. لصخب المخيف الذي التأم في صيحة واحدة.. تصاعدت من أمواج خشبية غريبة.. الأفواه حريق.. أهم موتى استيقظوا في فرحة البكاء.. متى جاءوا.. وكيف جاءوا قبل وصولي؟

أمسكت بأعلى جبهتي من الطرفين وحبست دموعاً لم أفهمها.. «الوداع يا جمال يا حبيب الملايين».. بدت لي الأجساد تحتضن بعضها.. ولكن ما هذا الصندوق البعيد.. مهد وليد يكاد يرتفع للسماء.. جمال هو ابنهم.. وهو غير موجود بينهم.. لهذا يبكون.. أهو لحن جميل من الألحان الشعبية.. كيف حفظته ملايين الرؤوس المتخبطة في الأسفل.. لم يأتوا لمدرستي بالأمس كي يطلبوا منا حفظه.. لم تشر إلى «السير»[٣] بذلك. شهدت لي بالذاكرة

القوية.. لكنها لا تعلم أني لا أجيد الغناء.. إذ أتسلل بين الصفوف في ذلك القبو الرواق المزين بالورود والصلبان. يشبه المعبد.. تضم الفتيات الأكف الصغيرة الرفيعة. ترتل.. أفتح فمي وأغلقه..

أمي تحرجني، وأنا ما زلت بزي المدرسة. وحقيبتي ملقاة بعيداً.. لم أستطع قلبها.. الشرفة منزلي. لمَ الوداع.. بغناء لا أدريه.. وهي تشد على يدي أيضاً.. تُرى لمَ جئت إلى هنا.. لسوف تصعد الرؤوس الباكية وحدها نحوى تتسلق الشرفة.. وأغرق في دموعهم دون أن أراقب سير الصندوق المغلف بالعلم.. يترنح كقارب وسط الأمواج.. تشبثت بحديد الشرفة في ذهول.. إنها طوابير أخرى.. ليست كطوابير كل يوم.. نمل كبير عاجز عن الطيران..

سقطت دمعة.. كقطرة مطر في ذلك الجو الجاف.. نظرت فوقي.. لم أجد أحداً.. كانت عيناي مرآتين لوجوه تتشابه.. تتشابه بالنحيب.. لم أتحرك.. ظلت قدمي مفلطحة سمينة تعوق تبدل طعم الدموع.. كانت ذات طعم طيني عسلي كلون هذا البحر السائل أسفلنا.

انضمت الجموع في هيئة أهرامات صغيرة.. لم تعزف ماري.. اختفت خلف منديلها المتهدل.. وتلون الكون بلون الدماء الوردية الأولى التي تهبط في جوف الدموع حين تجف.

يطاردون بعضهم بعضاً لُهاثاً وراء الصندوق.. اتجاهاتهم متضاربة مجهولة مخيفة.. يهربون.. اجتمعوا فجأة.. تضج الشوارع بالحصار.. تسقط كفي من كف أمي.. أختفي في ظلام حناجرهم.. خيل إليّ أن أمي تتأملني لكن عباءة الموت السوداء كانت تتسرب من بين الأبواق النحاسية فوق الجماهير حين يختفي الصندوق والنجمتان.. يضيق جفناي.. تضيق الطرق وجبهات الرمال.. عقارب الساعات تنقلب.. عيناه اللامعتان أبي.. وجهه ينخفض بالشجن.. تُحَنَّط ابتسامة جمال وكفه الكبير وهو يلوح لي.. هذا الحديد.. هذا الحديد.. سجدتُ.. لوّحتُ للصندوق.. لعله يأتي إليّ.. كيف استلقي جسد بداخله.. ترى ما الملامح.. هل يشعر بنا؟.. لعله يستطيع أن يرى من بالشرفات.. لكنه ابتعد.. في نعش طائر بارز هو شرفتنا.. سور الشرفة يتساقط.. الوجه يتساقط.. لوحت للأفواه المفتوحة بالصراخ.. ضاعت ملامح الوجوه والاسمرار أمواج متقلصة من عويل النساء واهتزازات الرؤوس.. كفى.. تكاثرت الخطوط في كفي وتفرعت.. صارت أسلاكاً. غناؤهم خيام قبلية.. أعناقهم تنحلّ.. أكتافهم.. كلٌ يموج وحده.. من هذا.. من هم.. هذا هو هم.. سأكبر يوماً.. ثم يختفي كل شيء.. قبل أن تتعالى العمارات كثيراً وتتكاثر اللافتات.. ظلوا يسيرون بأيادي بعضهم بعضاً.. تتعارك الأيادي فوق بعض.. ينحنحون.. ينحنون.. شاحبين كالموتى.. اختفت أرجلهم.. صاروا رؤوساً.. غيبوبة.. صاروا بحراً.. سحابة صفراء منسية.. موجة.. وجهاً واحداً كبيراً أنفه شرفتنا.. صرخاته بذور التصدع في وجه أمي.. فمه الأخرس كنت أنا.. عيناه كل لون يتلون في أيام مصر في الداخل. في الخارج المخيف.. أول مرة.. مصر.. أبي.. هو أنت.. في كل مغرب بعد أن تعود من عملك المرهق وأسمع حفيف كفيك وهما تلامسان ضفائري.. كنت بين هذه الجموع دون أن تراني.. ولم أرك.. لهذا أحببتك. ثمة حصار ما.. والمرآة الكبيرة بين عيني كانت تتصدع.

استدارت طبلية المنزل الوحيدة كالرغيف.. يسير فيها النمل جنازات بين شقوقها.. يحملون ضحاياناً.. الفراغات فاكهة ماتت بعد التهامها.. أرجل الطبلية باكية قصيرة كطفل رضيع لا يقوى على احتمال أكثر من ذراعين.. لا أدري إن كانت جدتي أمّ أبي شهدت صناعتها قبل أن ترحل عنا غاضبة مع حفيدها الابن.. حاولت كثيراً أن استكشف إن كنت أشبهها كما يقولون لكني فشلت.. فقط ظللت سعيدة أنها لم ترني ألاعب النمل كي تسألني ماذا أفعل.. جدتي.. أمّ أمي.. عرفتها صورة.. شابة شقراء الشعر خضراء العينين.. جميلة.. دافئة الوجه. عادت أختي اليوم مترنحة من حمى أصابتها لديها في حلوان.. يقولون زوجها الشركسي أنانيّ لا أدري.. يسير

يسبح . . لا يستقبلنا لديه . . كيف بقيت أختي هناك . . ثم أصابتها حمى تدليل جدتها وناموس الملاريا . . لا أدري أين اختفى أخي فوق دراجته قبل أن يرمي ملابسه مبعثرة . . ها هي أختي تعود في تاكسي عملاق وسط أمي وأبي . . نجلاء مريضة . . وقفت أرقب المشهد خارج البيت . . هل هو منزلنا هذا الذي تأتي إليه مغلفة قادمة من بعيد . . الكرات البيضاء البارزة من السور المنخفض السماوي همست لي بذلك . . رائحتها عرق ودرجات .

عادت نجلاء . . ومعها كتب الثانوية العامة . . هذا إذن هو الصيف المنذر بخطر ما . . فمها أزرق اللون . . تضخم وجهها . . كان حزيناً . . ربما لأنها عادت فجأة . . لم أتحسس جبهتها . . ركضتُ بأرجل عارية . . انهمر رذاذ غاضب من فم أبي لم أفهم معناه . .

ـ أختك عندها حمّى . .

كانت أنفاسه تتهدج . . في وقت الغداء كنا . . حيث تتسع الطبلية بحجم المنزل ثم تنكمش حين تمتلىء بكتب تحضير الدكتوراه .

ظللت صامتة وقت الغداء . . كنت قد تركت ألعابي ، ووقفت في المطبخ الغامق اللون . . بلاطه داكن . . صار الجو مكفهراً . . على الرغم من أن «ركس»[٤] ظل مبتسماً فاتحاً فمه لتَلَقِّي جلود الدجاج، جالساً في مواجهة القط الليلي صديق أختي . . كلٌ يمد ذراعيه نحو الآخر في تماثل وتحفّز .

قفز «زغلول»[٥] من بين ذراعي نجلاء الساختين نحو الشباك . . ظلت هادئة . . لا تكلمني . . الجميع هادئون . . ما دمت بعيداً أحصي تكرر وجوه أصدقائي القليلين . . وتجدد الوجوه الكبيرة التي ترتاد القصر المجاور، فيستقبلها (أنور) بعد اعتذاره عن اللعب معنا ككل يوم . . ويبتعد الحراس في ابتسامات بلهاء يحرسون السيارات السوداء التي قد تحمل أعلاماً صغيرة في بعض الأحيان . .

ثمة حصار ما . . تهمة ما . . حين انتزعنا قشرة الشظف المتثاقل وهاجر أبي طبليته . . أمسكني ورحلنا . . ودَّعنا الدخان في المطار وستة أشباح جاءوا من بين عشرات المعارف . .

لا أدري ماذا ارتديت يومها في مطار الجزائر، لكني جلست . . حقيبة تضاف إلى حقائبنا الصغيرة . . أخفي عينين . دقيقتين لم يمض وقت طويل على تكونهما . . جلس أبي في صمت حزين يتأمل . . اقتحمت أمي غياهب العاصمة الجميلة للبحث عن عمل . . يسعدني عندئذ أنها طويلة القامة . . ولكن . . فقدتُ صوتي وضاعت حروف الوداع في جنازة الزعيم . . أحرقنا مراكبنا .

القاهرة

---

(١) الجمعيات : المقصود بها الجمعيات التعاونية المخصصة لبيع المواد الغذائية المدعومة أسعارها من الدولة .

(٢) الكوربة : حيّ سكنيّ في مصر الجديدة إحدى ضواحي القاهرة .

(٣) السير : La sœur الأخت والمقصود المدرِّسة الراهبة .

(٤) (٥) ركس : اسم كلب في الدار، و«زغلول» اسم قط .